البكاء على فقد المكانة الاجتماعية بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص

إعداد

مُنى بنت بخيت الهيبي

محاضر في كلية العلوم والآداب بالمندق

مجلة بحوث التربية النوعية – جامعة المنصورة

عدد (٢٦) – يوليو ٢٠١٢

البكاء على فقد المكانة الاجتماعية بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص

إعداد

منى بنت بخيت اللهيبي*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد تختلف الفاجعة من شخص إلى آخر، ويختلف،بناء على ذلك،التعبير عنها، وقد تعرض عدد من الشعراء،إذ لم يكن كلهم، لأنواع من المصائب والهموم ؛ فمنهم من عانى بسبب فقد أهله،ومنهم من عانى لفراق حبيبته،ومنهم و منهم، حتى ظهر لنا بحر من الدموع في أشعارهم.

يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وَلَقَدْ أرَى أنَّ البُكَاءَ سَفَاهَةٌ وَلَسَوفَ يُولَعُ بالبُكَا مَنْ يُفجَعُ

ومن المصائب التي بكاها الشعراء البكاء على فقد المكانة الاجتماعية ؛ إذ كان وما يزال للمكانة الاجتماعية قيمة عظيمة عند الشاعر، وإذا فقدها أخذ يعبر عن هذا الفقد وهذا المصاب بنوع مميز من البكاء أغفله النقاد والدارسون فكان جل اهتمامهم غالبًا في دراسة العصر الجاهلي هو فن الرثاء وفن الغزل، وكأن الدموع كانت مقصورة بين الميت، والحبيبة،والشباب ،بينما يظهر لنا ومن خلال البحث، كثرة البكاء على فقد المكانة الاجتماعية، خصوصا في الجاهلية، ولعل السبب في إغفاله يعود لطبيعة عرض الموضوع . فالشاعر في الغالب لا يظهر لنا بكاؤه ، وإنما هو بكاء خفي حزين مؤلم يتوجع فيه ويسقط هذا التوجع على من حوله ليظهر مدى قوته وتجلده، ولو تتبعا هذا النوع من البكاء لظهرت دراسات عدة، وقد أثرت في هذه الدراسة أن اقتصر على شاعرين من شعراء العصر الجاهلي كلاهما عانى من فقد المكانة الاجتماعية فكان البحث بعنوان " البكاء على فقد المكانة الاجتماعية بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص".

أما اختياري لامرئ القيس فلا أعلم فاجعة أعظم على ملك من قتل والده وزوال ملكه، وأما عبيد بن الأبرص فلما لقيه من ذل ومهانة بعد سيادة وعزة حتى سموا عبيد العصا وقد جمعت بينهما للوقوف على هذه الظاهرة وإبرازها .

* محاضر في كلية العلوم والآداب بالمندق

فقد بكى امرؤ القيس [1] على مكانته الاجتماعية، وخير دليل على بكائه هو معلقته التي تعد من أشهر المعلقات الجاهلية وأكملها يتحدث فيها عن نفسه وعواطفه،وخواطره وتأملاته، ويسقط تجربته على الطبيعة من حوله، فينظر إلى البرق والمطر الذي سرعان ما يتحول إلى سيل يبعث الخراب والدمار مقتلعًا الأشجار، هادمًا البيوت، وهو تماما مثلما حل بالشاعر فقد تحولت حياته من عز إلى ذل بصورة سريعة تتشابه مع ما يتركه السيل من دمار . فمن خلال ربط هذه المعلقة بحياة الشاعر يتجلى لنا طابعها الباكي الحزين الشاكي على ضياع ملكه وتغير حاله . ونظرًا لطول أبياتها نحاول الوقوف على أهمها،و يستوقفنا في ذلك أول بيت منها وهو قوله :[2]

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

نلحظ في مطلعها قمة الحزن والبكاء ولكنه بكاء ملك يخفى عبراته فقد وقف و بكى في شطر بيت، وهذا دليل على قدرته الفائقة على الإيجاز، واتساع المعاني وتكثيفها . و مطلع النص هو المفتاح لقراءة القصيدة فقد رأى فيه غالبية النقاد القدماء دلالة موحية لما بنيت عليه القصيدة، وما ترمي إليه،وذلك لما يحويه من إمكانات ؛ ذلك أن " الشعر قفل أوله مفتاح " [3]

فالمطلع مهم لفهم القصيدة والوقوف على أسرارها لأنه مبنى غالبًا على الرمز والإيحاء،لا الوضوح والتصريح كما أنه مرتبط بشخصية القائل ونفسيته ومعاناته ؛ لذلك قال الشاعر ذكرى حبيب ولم يحدد هذا الحبيب .

والشعر غالباً ما يأتي استجابة لمشاعر الشاعر فيظهر النص بصورة حلقة واحدة مترابطة التراكيب،والألفاظ، والصور بحيث تأتي الخاتمة فيه مكملة لبدايته ومتممة له. يقول الدكتور محمد أبو موسى :"لاحظت أن امرأ القيس أذاب هذه المكونات المختلفة من ذكر النساء، وذكر الهمّ، وذكر الصيد، وذكر البرق، ومزجها مزجًا واحدا بكلمة واحدة، ذكرها في أول القصيدة، وهي كلمة (ذكرى) فأدخل هذا كله في باب الذكرى، وجعل الكلّ معلقًا بها ومنظومًا في سلكها ... وكل القصيدة صور استرجعتها الذكرى وبكاها الشاعر، حتى الصيد والمطر، الذي كان يُرى برقه صاحبه

---

[1] امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي كان أبوه ملك أسد وغطفان.قال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده عنه و أستمر في شربه وطربه وغزوه ولهوه، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا! اليوم خمر، وغدا أمر!، ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعرًا كثيرًا. وكانت حكومة فارس ساخطة على بني آكل المرار (آباء امرئ القيس) فأوعزت إلى المنذر بطلب امرئ القيس، فطلبه، فابتعد، وتفرق عنه أنصاره، فطاف قبائل العرب حتى انتهى إلى السموأل، فأجاره. فمكث عنده مدة. ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس. وقال ابن قتيبة: (هو من أهل نجد. والديار التي يصفها في شعره كلها ديار بني أسد). ويعرف امرؤ القيس بذي القروح (لما أصابه في مرض موته) و بالملك الضّليل (لاضطراب أمره طول حياته) .وهذا ما يؤكد شدة الحزن الذي لحق بالشاعر فظهر في شعره .

[2] ديوان امرئ القيس ضبطه وصححه الأستاذ : مصطفى عبد الشافي بتحقيق : حسن السندوبي، ص: ١١٠ وما بعدها، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م.

[3] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة حجازي القاهرة ط ١، ١ / ١٩٧ .

ويقعد هو له يرقبه . ولا شك في أن التجويد البالغ في هذه القصيدة والتي تفوقت به على الشعر كله إنما كان هذا التجويد من فرط توقه وتحرقه وتعلقه بهذه الذكرى "[1]

وعند النظر عن أسباب تحول تلك الأحداث إلى ذكرى عنده نجد أن ضياع مُلكه هو المصاب الذي كان حاضرًا في نفس الشاعر،والسبب في تغير حياته ؛ لذلك ظل ملازمًا له في شعره .وما يثبت ذلك قوله [2]:

كَأَنّي غَداةَ البَينِ يَومَ تَحَمَّلوا لَدى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنظَلِ
وُقوفاً بِها صَحبي عَلَيَّ مَطِيَّهُم يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفائي عَبرَةٌ مَهَراقَةٌ فَهَل عِندَ رَسمٍ دارِسٍ مِن مُعَوَّلِ
فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي

فنجد الشاعر يقف على الدواء المناسب لحالته وهو الدموع والبكاء على ما أصابه، ولكنه ينكر على نفسه هذا الدواء من خلال الاستفهام .فيقول : فهل عند رسم دارس من معول؟: فيرى انه لا فائدة من البكاء على هذه الأماكن، فالبكاء لا يزيد صاحبه إلا تحسرًا وحرقة. وما يلبث إلا أن يستسلم الشاعر للبكاءِ على الرغم من قولهِ بأن لا بكاءَ يجدي عند قبر دارس، وهذا يوحي بأن الشاعر لم يقصد البكاء على فراق الحبيبة، وإنما هو البكاء على المكانة السابقة التي كان فيها ملكًا يطاع ويحصل على ما يريد، فحضور المرأة كان على الغالب في هذه المعلقة حضور رمزي، وذكر الحبيبة وغيرها كان بمثابة قناع فني يصل من خلاله إلى عرض معاناته، وحتى إذا كان يقصدها بذاته فمن باب إظهار القوة والتجلد، فحياته السابقة كانت حياة لهو وترف، لكن في المعلقة،وطبيعتها الباكية وكل ما تحمله من ألم وهم وحزن وجودة فنية تؤكد أنها قيلت بعد معاناة، ولا أظن الشاعر يملك تلك القوة التي تحدث عنها والتي هو أخبر عنها أنها ذكرى .وقد اختلف النقاد حول هذه المعلقة، ومتى قيلت غير أن المهم فيها أنها تعبر عن معاناة حقيقية للشاعر سواء كانت قبل موت والده أو بعده، فحياة الشاعر من بدايتها إلى نهايتها ضياعًا وتشردًا، بدليل مقولته المشهورة:" رحم الله أبي! ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا" فملكه قد ضاع منه قبل موت والده!

فلا عجب أن نراه عند ذكره لليل تزداد الهموم عليه و يشعر بحاجة إلى سلطة الملك الذي اعتاد على إصدار الأوامر، غير أنه يعود إلى واقع الأمر المرير، وهو أنه لم يعد ذلك الملك الذي يأمر فيطاع ، فقد أصبح كثير الهموم، والليلُ والنهار عنده سواء، ويظهر ذلك في قولة [3]:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ

[1] الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، تأليف : الدكتور . محمد أبو موسى، ص: ٢٧ وما بعدها مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨ م .

[2] الديوان، ص: ١١١ومابعدها

[3] السابق : ص: ١١٧

أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلي بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ
فَيا لَكَ مِن لَيلٍ كَأَنَّ نُجومَهُ بِكُلِّ مُغارِ الفَتلِ شُدَّت بِيَذبُلِ
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت في مَصامِها بِأَمراسِ كَتّانٍ إِلى صُمِّ جَندَلِ

ففي الأبيات السابقة تصوير دقيق لحاله، ونلحظ فيها عبارات الأسى والحزن ؛فقد كان الشاعر يتخير من الألفاظ أقواها وأدلها على مراده من غير تصريح، فتصويره للطبيعة كان تصويرا مميزًا يظهر قدرة الشاعر على الربط بين حاله وحال الطبيعة من حوله، فالليل والمطر والجبل ما هي إلا وسائل استعان بها الشاعر لعرض حياته . يقول في ذلك الدكتور محمد أبو موسى :"وهل يمكن أن تقول إن تكرار الجبل في قصيدة يقص فيها شاعر متميز طرفاً من قصة حياته، يومئ من بعيد إلى علاقة بين الشاعر والجبل، وأن روح الاقتدار والجسارة و الاعتزاز بسلطانه وملكه، الذي رأيناه يجرى في كثير من صور القصيدة كما رآه من قبلنا الأعلم الشنتمرى، قد انتهى إلى صورة الجبل الذي أغرقته الأهوال، ولكنها لم تسقط منه حجرًا ؟ وهل يمكن أن نقول : إن الشجن الذي سكن تحت كل صور البهجة في القصيدة من يوم أن بدأ يحدث عن أيامه الصالحات التي مضت ولم يبق منها إلا الذكرى التي تثير الحنين إليها وتقلقل الأسف على تقضيها وتقضى الشباب معها الذي كان يلهيه ويعجبه ؛ كل ذلك قد تجسد في آخر القصيدة، في هذه الصورة التي نرى في ظاهرها العطاء والسخاء، وفى باطنها الفناء؟ أقول هذا ما عندي و أرجو أن يكون الذي عندك أفضل "[1] .فباب الاجتهاد مازال مفتوحًا للوقوف على معاني الشاعر، ومراميه . والوصول إلى ذلك لا يكون إلا من خلال الوقوف على ديوان الشاعر كله، فالشاعر الملك يسعى إلى أمر عظيم ليس مثل غيره ؛ لذلك نراه يقول في غير هذه القصيدة، وهي قريبة الشبه منها :

أَلا عِم صَباحاً أَيُّها الطَلَلُ البالي وَهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُرِ الخالي
وَهَل يَعِمَن إِلّا سَعيدٌ مُخَلَّدٌ قَليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بِأَوجالِ

ويختمها بقولة :

فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ كَفاني وَلَم أَطلُب قَليلٌ مِنَ المالِ
وَلَكِنَّما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي
وَما المَرءُ ما دامَت حُشاشَةُ نَفسِهِ بِمُدرِكِ أَطرافِ الخُطوبِ وَلا آلي

فالوقوف على هذه الأبيات يؤكد عمق الحزن الذي أصاب الشاعر، وحرصه على بذل الجهد للوصول إلى المجد الذي يريده، ومحاولته استرداده، مع علمه بصعوبة الوصول إليه ؛ لكنه يجد في نفسه إنسانًا مميزًا ليس كغيره .وفعلا صدق الشاعر مع نفسه، وحرص على استرداد عزه، وكاد أن يصل، فقد فرح بتحقق النصر على أعدائه في بعض قصائده [2] وتمكنه من أخذ الثأر لوالده، ولكنه فرح ناقص إذ لم يستطع استرجاع ملكه الضائع ؛ فقد تمكن بنو أسد من الفرار، وكان شفاء نفسه

[1] الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص : ١٥٢ وما بعدها.
[2] ينظر الديوان مثل قولة : قولا لِدودانَ عَبيدِ العَصا ما غَرَّكُم بِالأَسَدِ الباسِلِ

الحقيقي القضاء على بني أسد، وقد لحق بهم ولم يتمكن من القضاء عليهم فثار وغضب. يقول في ذلك [1]:

أَلا يا لَهفَ هِندٍ إِثرَ قَومٍ هُمُ كانوا الشِفاءَ فَلَم يُصابوا
وَقاهُم جِدُّهُم[2] بِبَني أَبيهِم وَبِالأَشقينَ ما كانَ العِقابُ
وَأَفلَتَهُنَّ عِلباءٌ جَريضاً وَلَو أَدرَكنَهُ صَفِرَ الوِطابُ

وقال عندما توجهه إلى قيصر ملك الروم مستنجدًا به على رد ملكه :[3]

سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا وَحَلَّت سُلَيمى بَطنَ قَوٍّ فَعَرعَرا

وذكر رحلته، ثم انتقل إلى الأمر الجلل الذي كان حاضرًا في ذهنه، وقد رتب قصيدته من أجله فقال [4]:

عَلَيها فَتىً لَم تَحمِلِ الأَرضُ مِثلَهُ أَبَرَّ بِميثاقٍ وَأَوفى وَأَصبَرا
هُوَ المُنزِلُ الآلافَ مِن جَوِّ ناعِطٍ بَني أَسَدٍ حَزناً مِنَ الأَرضِ أَوعَرا
وَلَو شاءَ كانَ الغَزوُ مِن أَرضِ حِميَرٍ وَلَكِنَّهُ عَمداً إِلى الرومِ أَنفَرا
بَكى صاحِبي لَمّا رَأى الدَربَ دونَهُ وَأَيقَنَ أَنّا لاحِقانِ بِقَيصَرا
فَقُلتُ لَهُ لا تَبكِ عَينُكَ إِنَّما نُحاوِلُ مُلكاً أَو نَموتَ فَنُعذَرا

فقد صرح الملك الشاعر بما في نفسه وأنه يحاول التجلد والتصبر، وذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين صاحبه، فلم يكن لصاحبه أي دور في الحوار سوى الدموع فهي الوسيلة الوحيدة التي يملكها ؛ وما ذاك إلا نتيجة لوصول الشاعر إلى مرحلة اليأس والعجز . والشاعر يحاول أن يصبر نفسه من خلال تهديده لبني أسد وتوعده لهم بأنه لو شاء لغزاهم بجيوش من أرض حمير، ولكنه آثر أن يغزوهم بجيوش من أرض الروم تنكيلا بهم ورغبة بعودة مكانته التي فقدها، ولكن لحظة الأسى والحزن تعود له بالوقوف على الحقيقة والقناعة التامة التي وصل إليها بتخلي الأصحاب عنه لتبدل حاله، ويظهر ذلك في قوله [5]:

كَذَلِكَ جَدّي ما أُصاحِبُ صاحِباً مِنَ الناسِ إِلّا خانَني وَتَغَيَّرا
وَكُنّا أُناساً قَبلَ غَزوَةِ قُرمُلٍ وَرَثنا الغِنى وَالمَجدَ أَكبَرَ أَكبَرا

فهذي الأبيات عبرت بشكل واضح عن حال الملك الضليل الذي أضاع ملكه وضيع معه بطولته ولهوه ومكانته، وقد أصبح العزاء الوحيد أمامه هو تذكر تلك المكانة والبكاء عليها .

---

[1] السابق ص: ٤٥
[2] جدهم : حظهم، فالشاعر يرى أن الحظ هو الذي ساعدهم في الخلاص من قيضته .
[3] السابق : ص: ٥٩
[4] السابق : ص: ٦٣وما بعدها .
[5] السابق ص : ٦٦

فقد عانى الشاعر من تخاذل القبائل عنه، وكثرة الروايات والأخبار عن ذلك . يقول الدكتور شوقي ضيف :"وهذه الأخبار عن امرئ القيس، بعد مقتل أبيه ومصيره، رويت في جملتها عن ابن الكلبى المتهم فيما يرويه، و التلفيق فيها بين واضح .ويمكن أن يكون لها أصل،تشهد به الحوادث، وهو أن يكون قد حاول عبثا استرداد ملك آبائه، ولكنه مات دون تحقيق غايته [1]"

وعلى الرغم من أن الشاعر أخذ يبذل الجهد في محاولة الوصول إلى مجده الضائع، متجرعًا مرارة الألم كلما ابتعد عن هذا الحلم الضائع فأنه لم يعد يحمل من القوة في تحقيقه سوى شعره الباكي الذي يصور قمة حزنه على ضياع ملكه .

يقول مصورًا حاله في نهاية حياته [2]:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَعِرفانِ وَرَسمٍ عَفَت آياتُهُ مُنذُ أَزمانِ
أَتَت حجَجٌ بَعدي عَلَيها فَأَصبَحَت كَخَطِّ زَبورٍ في مَصاحِفِ رُهبانِ
ذَكَرتُ بِها الحَيَّ الجَميعَ فَهَيَّجَت عَقابيلَ سُقمٍ مِن ضَميرٍ وَأَشجانِ
فَسَحَّت دُموعي في الرِداءِ كَأَنَّها كُلى مِن شعيبٍ ذاتُ سَحٍّ وَتَهتانِ
إِذا المَرءُ لَم يَخزُن عَلَيهِ لِسانَهُ فَلَيسَ عَلى شَيءٍ سِواهُ بِخَزّانِ
فَإِمّا تَرَيني في رِحالَةِ جابِرٍ عَلى حَرَجٍ كَالقَرِّ تَخفقُ أَكفاني

وفي المقابل نجد عبيد بن الأبرص[3] يعبر عن فقد مكانته الاجتماعية وبكائه عليها بطريقة مختلفة عن امرئ القيس، فيها نوع من المباشرة والوضوح، فنجد له قصائد كاملة مدارها البكاء والحزن فقد تفجع لخراب الديار وتبدد أهلها في أشهر قصائده [4]:

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ فَالقُطَبِيّاتُ فَالذَنوبُ
فَراكِسٌ فَثُعَيلِباتٌ فَذاتُ فِرقَينِ فَالقَليبُ

---

[1] العصر الجاهلي، تأليف : الدكتور شوقي ضيف، ص : ٢٤٠ دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة
[2] الديوان ص : ١٦٣
[3] عبيد بن الأبرص الأسدي،. كان يُعدّ، في شعراء الجاهلية من الطبقة الأولى، عاصر امرأ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفد عليه في يوم بؤسه. وهو شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وأحد أصحاب المجمهرات المعدودة، جعله محمد بن سلاّم في الطبقة الرابعة، وعبيد من سادات قومه وفرسانهم المشهورين، وكان في أيّامه حُجر بن الحارث، أبو امرئ القيس الشاعر، ملكاً على بني أسد، فنادمه عبيد ثم تغيّر عليه حُجر وطفق يتوعّده في شيء بلغه عنه، ثم عفا عنه، ولما تمرّد بنو أسد على حُجر، وأبوا أن يدفعوا له الجباية، وقتلوا رسله، غضب وسار إليهم بجنده، وأخذ سرواتهم، فجعل يقتلهم بالعصا، فسمّوا عبيد العصا، وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كندة، وكان سيّداً، وعبيد بن الأبرص، وأباح أموالهم وصيّرهم إلى تهامة وأبى أن يساكنهم في بلدٍ. فسارت بنو أسدٍ ثلاثاً، ثم إن عبيداً قام فقال: أيّها الملك اسمع مقالتي:
يا عين فابكي ما بني- أسد، فهم أهل الندامة فرق قلبُ حُجر حين سمع قوله فبعث في إثرهم، فأقبلوا، ولم يطل الأمر حتى ثاروا عليه وقتلوه،
4 ديوان عبيد بن الأبرص، شرح : أشرف أحمد عدرة، ص: ١٩ وما بعدها، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، بيروت .

فَعَردَةٌ فَقَفا حِبرٌ لَيسَ بِها مِنهُمُ عَريبُ
إِن بُدِّلَت أَهلُها وُحوشاً وَغَيَّرَت حالَها الخُطوبُ
أَرضٌ تَوارَثُها شُعوبُ وَكُلُّ مَن حَلَّها مَحروبُ
إِمّا قَتيلاً وَإِمّا هالِكاً وَالشَيبُ شَينٌ لِمَن يَشيبُ

فعبارات الخراب،والدمار،والموتِ منتشرة في أرجاء قصيدته، ولكن أصدق تعبيرًا له عن فقد تلك المكانة كان في قصيدته التي توجه بها إلى الملك يقول فيها:[1]

يا عَينِ فَابكي ما بَني أَسَدٍ فَهُم أَهلُ النَدامَه
أَهلَ القِبابِ الحُمرِ وَالـ نَعَمِ المُؤَبَّلِ وَ المُدامَـه
وَذَوي الجِيادِ الجُردِ وَالـ أَسَلِ المُثَقَّفَةِ المُقامَـه
حِلّاً أَبَيتَ اللَعنَ حِـ ـلّاً إِنَّ فيما قُلتَ آمَه
في كُلِّ وادٍ بَينَ يَث ـرِبَ فَالقُصورِ إِلى اليَمامَه
تَطريبُ عانٍ أَو صِيا حُ مُحَرَّقٍ أَو صَوتُ هامَه
وَمَنَعتَهُم نَجداً فَقَد حَلّوا عَلى وَجَلٍ تِهامَه
بَرِمَت بَنو أَسَدٍ كَما بَرِمَت بِبَيضَتِها الحَمامَه
جَعَلَت لَها عودَينِ مِن نَشَمٍ وَآخَرَ مِن ثُمامَـه
إِمّا تَرَكتَ تَرَكتَ عَفـ ـواً أَو قَتَلتَ فَلا مَلامَـه
أَنتَ المَليكُ عَلَيهِمُ وَهُمُ العَبيدُ إِلى القِيامَـه[2]
ذَلّوا لِسَوطِكَ مِثلَما ذَلَّ الأُشَيقِرُ ذو الخِزامَـه

فالقصيدة في دلالتها العامة بكاء وتوجع واستعطاف مبطن بأخذ الثأر، وأنفة وحزن على الماضي، فكل ما في القصيدة من ألفاظ ودلالات توحي برغبة مكبوتة لا يستطيع الشاعر الفارس إظهارها .فهي رسالة موجهة بطريقتين : طريقة ظاهرة للملك (قراءة سياقية)، وطريقة مبطنه لبني أسد (قراءة رمزية من خارج النص) .

فقد استفتح الشاعر قصيدته بمطلع مؤثر حيث بدأ بالنداء، وكان المنادى جزءًا من الإنسان وكلمة فابكي دلالة على طلب الاستمرار على البكاء ؛ فما حصل لهم أمر عظيم، وطلب البكاء من العين ما هو إلا استحضار من الشاعر للمشاهد الماضية ؛ لذلك وجه طلبه إلى العين مباشرة فهي

[1] السابق ص: ١٠٨ وما بعدها .

[2] قول عبيد إلى القيامة إذا صحت نسبته إليه قد يكون قصد فعلًا يوم القيامة فلا نستطيع إغفال الديانات الأخرى لاسيما وأن عبيدًا يعتبر من شعراء النصرانية ، وقد يكون المقصود إلى قيام ثورتهم عليك والقضاء على الذل الذي لحق بهم، وهذا ما أضمره الشاعر في نفسه وما تحقق بعد ذلك لهم .

العضو الوحيد الذي أبصر المجد والعز الذي كان بنو أسد عليه كما هي الآن الشاهد الوحيد على الحاضر الذي صار إليه حالهم ؛ فحالهم يستوجب استحضار الدمع، فلعل في الدمع شفاء للحزن والهم الذي هم فيه، و الشاعر هنا يحاول استعطاف الملك بالبكاء ؛ فالبكاء والدموع عادة ما تكون وسيلة لإظهار الضعف والندم، وهو ما يريد أن يوصله الشاعر إلى الملك، حتى تتشكل لديه و لدى السامع الحالة المحزنة التي بلغها قوم الشاعر، والذل والقهر الذي أصابهم بعد أن كانوا في عز في ظل ذلك الملك، وقوله : ما بني أسد :ما زائدة .

ويبدو أن الأمر المهم الذي يريد أن يوصله الشاعر إلى قومه هو أنهم يستحقون ما حل بهم، وهذا يظهر في قوله (أهل الندامة) ثم يعود ويكرر كلمة (أهل) مرة ثانية، ولكن هذه المرة مع مسببات النصر التي كان من الممكن العمل بها للقضاء على الملك ؛ فكأن الشاعر يتعجب مما عليه قومه وهم أصحاب سيادة ومال وثروة تمثل ذلك في اقتنائهم الإبل الكثيرة وشربهم للخمر، وشرب الخمر كان من علامات الكرم، وهم أصحاب فروسية وخيل ورماح وشجاعة، غير أن ظاهر الأبيات يدل على ذكر ماضيهم للتأكيد على التوجع وليثبت للملك بأن قوتهم ذهبت بعد الذي حل بهم، فلم يعودوا يملكون ما أغراهم بمواجهته . لذلك نراه يتوجه للملك بطلب الحل من اليمين التي أبرمها في أمر بني أسد . وذلك في قوله: حلا أبيت اللعن حلا أبيتَ فأبيتَ ا للعنَ نوع من أنوع التحية عند العرب وهي خاصة بالملوك

قال ابن الأنباري : معناها : أبيت أن تأتي من الأشياء ما يُستحق اللعنُ عليه

و "يلاحظ إن (أبيت اللعنَ) دعاء قاصر أو تحية ناقصة فكل ما تدل عليه حثّ المخاطب بها على تجنب ما يستحق اللعن عليه ؛ فقد يأتي بما يستحق اللوم و العتب و لا يستحق اللعن، أو ربما جاء بعمل لا يستحق عليه شيئًا من ذلك كله و لذلك ليس لهذه التحية مردود إيجابي على المخاطب بها، اللهم إلا الحث على تجنب ما يعاب، و ليس فيها الحث على فعل ما يحمد ويمدح صاحبه "[1]فالشاعر كان يقصد من هذه التحية أن يعود الملك عن يمينه ليعودوا إلى ديارهم .

ثم انتقل الشاعر إلى تفسير ذلك و تصوير العذاب الذي لقيه قومه وتشريدهم في الأرض :

في كُلِّ وادٍ بَينَ يَث ربَ فَالقُصورِ إِلى اليَمامَه

تَطريبُ عانٍ أَو صِيا حُ مُحَرَّقٍ أَو صَوتُ هامَه

ومنعتهم نجدًا،فَقَد حَلّوا عَلى وَجَلٍ تِهامَه

فرغم قصر العبارات إلا أنها تحمل الكثير من الدلالات و تتكثف فيها الصور وتغزر، وفي استحضار الشاعر للأماكن دلالة على التشرد وقسوة العقاب الذي طالهم في أماكن كثيرة، ودلالة على سطوة العذاب وتجبر الملك وملاحقتهم في أماكن عدة، ثم ينتقل الشاعر إلى تقريبٍ أكثر لمشهد المأساة ؛ فعبارة (تطريب عان) تعني : الأسير، الذي يمد صوته بالصياح، ولعله يقصد نفسه فلم

[1] بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي لـ : محمد بن علي الصامل، ص : ٦٧٥ مجلة جامعة أم القرى ج : ١٦ ع: ٢٨ شوال ١٤٢٤ هـ

يعد يملك إلا الصوت، وفي هذا إظهار للعجز، (وصياح محرق) تعني : الخراب والدمار وفيه إشارة إلى الذين أحرقهم اللخميون فسموا من أجل ذلك آل محرق والحُرْقةُ: ما يجده الإنسان من لَذْعةِ حُبّ أو حزن أو طعم شيء فيه حرارة. والحُرقة ما تجد في العين من الرمَد، وفي القلب من الوجَع.وفي هذه الدلالة استحضار للثأر .

و(صوت هامة) تدل أيضًا على: استحضار الثأر فصورة الهامة تزخر بها دواوين الشعراء " الهامة " تزعم العرب أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة - وهو من طيور الليل - فتزقو تقول: اسقوني اسقوني، ولعل وراء ذالك حثاً من الشاعر على طلب الثأر، ولاسيما وأن ديوان عبيد يزخر بالفخر على امرئ القيس،وهذا دليل على أن الشاعر كان يخفي هذه الرغبة ويضمنها شعره، وعندما استطاع تحقيقها افتخر بها. كما أن قوله: ـ تَطريبُ عانٍ أَو صِياحُ مُحَرَّقٍ،يقصد أن الأسى والحزن والبكاء يعم محيط القبيلة.والمشاهد والأحداث تتداخل وتتنازع فيما بينها، وهذا يدل على تداخل الأصوات وعلوها وكثرتها، لذلك فقد التركيز، فلم يعد يميز الشاعر بين الأصوات،كما تداخلت معها مشاعر الشاعر بين العفو وبين الثأر.

وقوله : وَمَنَعتَهُم نَجداً،فَقَد حَلّوا عَلى وَجَلٍ تِهامَه

يدل على سطوة الملك ومقدار الرعب الذي عاشوا فيه من وراء ذلك الحكم الجائر الذي جعلهم يتركون بلادهم، ولم يسلموا مع ذلك من الخوف، فقد رحلوا ورحل الخوف معهم. فالشاعر يرصد حالتهم النفسية بعد رصد حالتهم الجسدية ؛ وذلك للوصول إلى مراده فكأنه صرخة فارس أو رسالة نذير محبوسة في النفس .

فالقصيدة قالها أمام الملك وأمام أبناء القبيلة الذين يتوسم فيهم الخير والقضاء على الذل والخوف الذي لحقهم .

ثم ذهب إلى ذكر السبب فيما حصل لقومه، وذلك لم يكن بشكل مباشر وإنما من خلال عقد موازنة بين صنيعهم في ملكهم وصنيع الحمامة في بيضها في قوله :

بَرِمَت بَنو أَسَدٍ كَما بَرِمَت بِبَيضَتِها الحَمامَه
جَعَلَت لَها عودَينِ مِن نَشَمٍ وَآخَرَ مِن ثُمامَـه

ففي هذا المقطع يتنامى النص من خلال إحساس الشاعر بذله وذل قومه في مقابل سطوة الملك وقسوته، فيندفع إلى رصد تلك الحالة بضرب المثل حتى يبتعد عن المباشرة والإفصاح، فاتخذ من التشبيه وسيلة ليكشف عن السبب الذي أدى بقومه إلى الوصول إلى هذه الحالة:

إن استحضار الشاعر للحمامة يرمز إلى الحمق وقلة الحكمة، وتأدبًا مع قبيلته لم يصرح بهذا القول فأودع مقالته في قالب من الحكمة ؛ فبنو أسد هم من ضيعوا ملكهم بأيديهم كما ضيعت الحمامة بيضها، فقد رضوا أن يكون حجر ملكًا عليهم وهم يحسبون أنهم اختاروا الصالح لهم ولملكهم مثلما ظنت الحمامة أنها وضعت بيضها في المكان الصحيح، قال ابن السيرافى: " وضعت لها عودين من ...الخ يريد أنهم لم يتوجهوا للخلاص مما وقعوا فيه، وإنما جعلهم كالحمامة لأن فيها خرقًا، وهى

قليلة الحيلة،و قال ابن السيد في شرح أبيات أدب الكاتب: " تشبيه أمر بنى أسد بأمر الحمامة فتلخيصه أنه ضرب النشم مثلًا لذوى الحزم وصحة التدبير، وضرب الثمام مثلًا لذوى العجز والتقصير، فأراد أن ذوي العجز منهم شاركوا ذوى الحزم في آرائهم فأفسدوا عليهم تدبيرهم، فلم يقدر الحكماء على إصلاح ما جناه السفهاء، كما أن الثمام لما خالط النشم في بنيان العش فسد العش وسقط، لو هن الثمام وضعفه، ولم يقدر النشم على إمساكه بشدته وقوته "

وقيل،:وإنما المراد من تشبيههم بها عدم الاهتداء لصلاح الحال،قال الأعلم: " وصف خرق قومه وعجزهم عن أمرهم، وضرب لهم مثلًا بخرق الحمامة وتفريطها في التمهيد لعشها، لأنها لا تتخذ عشها إلا من العيدان المكسرة، فربما طارت عنها فتفرق عشها وسقطت البيضة فانكسرت، ولذلك قالوا في المثل: أخرق من حمامة، وقد بين خرقها في بيت بعده، وهو: جعلت لها عودين."[1]

ويبلغ الانفعال ذروته في نفس الشاعر، فبعد عرض حالهم وتجبر الملك عليهم يندفع مباشرة إلى تخيير الملك بين العفو أو القتل وكأن الشاعر وصل إلى مرحلة اليأس والعجز التام فيقول:

إمّا تَرَكتَ تَرَكتَ عَف واً أَو قَتَلتَ فَلا مَلامَه
أَنتَ المَليكُ عَلَيهِمُ وَهُمُ العَبيدُ إِلى القِيامَه
ذَلّوا لِسَوطِكَ مِثلَما ذَلَّ الأُشَيقِرُ ذو الخِزامَه

فالشاعر من خلال تخيير الملك يستثير عواطفه بجعل الأمر بيده وعدم اقتصاره على طلب العفو ؛ فقط وذلك له دوره في استماله قلب المليك وجعله بين أمرين،وما سبقهما من إشارة إلى حالهم حتى يشفق عليهم ولا يظن أنه يظهر التمرد عليه، بل هو معترف له بالسيادة وحق التصرف فيهم .

ومع إقرار الشاعر للملك بالسيادة غير أننا نلحظ أنه لم يمدحه، فالقصيدة لم يظهر فيها مدح للملك فكيف يمدح من أذله وأذل قومه، وإقراره كان من باب الاعتراف له بالنصر عليهم، خصوصًا أن هذا الإقرار أتى بعد الإشارة إلى قلة حكمتهم وتشبيهه لهم بالحمامة، ثم إن هذا يؤكد أن القصيدة ليست استعطافًا فلا يوجد فيها مدح ولا اعتذار ولا ثناء مما اعتاد الشعراء قوله ؛ فالقصيدة كلها بكاء على المكانة الاجتماعية و دعوة مبطنه لأخذ الثأر . إما أن تثأروا أو تكونوا عبيدًا إلى القيامة، وكلمة عبيد هي التي أخرجت البيت الأخير:

ذَلّوا لِسَوطِكَ مِثلَما ذَلَّ الأُشَيقِرُ ذو الخِزامَه[2]

فالبيت الأخير امتداد لما قبله يحمل دلالات عدة . ففي كلمة (ذلوا) إحساس بالمهانة وفي كلمة (سوطك) تأكيد للقوة التي بلغها ذلك الملك كما فيها أيضا تأكيد للذل الذي وصل إليه قومه !فقد ختم الشاعر القصيدة بموقف مؤثر يظهر فيه عمق الإحساس بالمذلة واحتقار النفس،

[1] شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، ٤ /٣٥٩

[2] الأشيقر، تصغير الأشقر وهو الفرس، و الخِزَامة : حلقة يشد فيها الزمام، يقولون : جعل في أنف فلان الخزامة، أي أذلَّهُ.

وليس في هذا إلا زيادة من الشاعر ليوقظ قومه من الغفلة التي هم فيها، وصرخة من فارس أراد أن يوصل إلى قومه رسالة مكبوتة مغلفة بألفاظ الحزن والمذلة والمهانة والبكاء، ولقد نجح الشاعر في ذلك فرق قلب الملك عليهم وعفا عنهم، كما تأسف بنو أسد على ماضيهم وسعوا في محو العار الذي لحقهم وذلك بقتلهم لذلك الملك الذي أذلهم، ولقد هدّدهم ابنه امرؤ القيس بفرسان قحطان، فخاطبه عبيد بقصيدة يفتخر فيها بقومه ويتحدّاه،يقول فيها:

يـاذا المُخَوِّفَنَـا بِمَقْتَلِ شَيْخِـهِ حُجْرٍ، تَمَنَّيَ صَاحِبِ الأَحْلاَمِ

وشتان بين القصيدة الأولى والثانية وشعر عبيد يزخر بالإشادة بهذا النصر لقبيلته، هذه الإشادة إلا نتيجة طبيعية لعظم المصيبة التي نزلت بهم والتي بقى أثرها رغم انتصارهم وفرحهم .

يقول الدكتور : أحمد عبد الواحد "من الناحية النفسية يدل شعره على رقة شعوره وتغلغل الأسى في نفسه وغلبة الحزن على طبيعته، بما يُستشف من البكاء المرير على خراب الديار وتبدد الأهل وتفرق الشمل ... ومن الناحية الاجتماعية يدل على قوة الوجدان الجماعي والإحساس القومي في نفسه، بما مكنه من أن يتكلم بلسان عشيرته، ويفصح عن همومها ويصور أساها "[1]

وختامًا، ومن خلال عرض معاناة الشاعرين نستطيع القول . بأن شعراء العصر الجاهلي استطاعوا أن ينقلوا لنا صورًا رائعة من حياتهم الاجتماعية ، فصوّروا لنا جوانب تشهد على رقتهم وأصالتهم ، فأنتجوا لنا أشعارًا شاكية باكية دلّت على مكابدتهم، وعمق معاناتهم النفسية، قبل الجسدية، وراء مصابهم الجلل في أهم ركيزة من ركائز مجتمعهم وهي مكانتهم الاجتماعية .

النتائج :

١. أنَّ شعر البكاء في العصر الجاهلي لم يحظَ بعد بدراسة مستفيضة، ولم ينل ما هو أهل له من العناية والاهتمام .
٢. تختلف صور البكاء من شاعر إلى آخر بحسب طبيعة الشاعر ومعاناته .
٣. صدق تجربة الشاعر وبراعته الفنية في التعبير عنها .
٤. لابد من ربط النص الشعري بحياة الشاعر لاسيما في العصر الجاهلي، فقد كانت حياة الشاعر هي الطريق لفهم النص و معانيه ومراميه .
٥. قد يكون البكاء والمعاناة سببًا لكثرة الإنتاج الشعري وتميزه .
٦. اختلف بكاء امرئ القيس عن بكاء عبيد بن الأبرص على فقد المكانة الاجتماعية فبكاء امرئ القيس لم يظهر بشكل واضح، وإنما أسقط حزنه على الطبيعة من حوله، بينما عبيد بن الأبرص لم يستطع إخفاء هذا الحزن والذل الذي أصابه لفقد مكانته الاجتماعية فصرح به وفصل في بعض قصائده .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

والحمد لله رب العالمين

[1] عبيد بن الأبرص حياته وشعره، تأليف : الدكتور . أحمد عبد الواحد ص:٣٥ الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ

ثبت بأهم المراجع:

- بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي لـ : محمد بن علي الصامل، مجلة جامعة أم القرى ج : ١٦ ع: ٢٨ شوال ١٤٢٤ هـ
- ديوان امرئ القيس ضبطه وصححه الأستاذ : مصطفى عبد الشافي بتحقيق : حسن السندوبي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح : أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، بيروت.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي .
- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، تأليف : الدكتور . محمد أبو موسى، ص: ٢٧ وما بعدها مكتبة وهبة . القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨ م .
- عبيد بن الأبرص حياته وشعره تأليف : الدكتور . أحمد عبد الواحد،الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ.
- العصر الجاهلي، تأليف : الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة حجازي القاهرة،ط ١، ١ / ١٩٧ .